

## الفصل الخامس

### الموقع المعرفى لتاريخ التربية

#### مقدمة :

الأنساق المعرفية المختلفة مثلها مثل أبناء البشر، فإذا كان لكل إنسان ذاتيته المتميزة التي تجعل منه هو هو ، بل وتساعدنا المعرفة بها على توقع ردود فعلها على هذا الفعل أو ذاك بقدر من الثقة ، فكذلك أنساق المعرفة ، لكل منها شخصيته المتفردة التي جعلت منها كيانا قائما بذاته ، له موضوعه وله منهجه ، وله علمائه وباحثوه ، ومصادره ومراجعته . وإذا استخدمنا نفس التشبيه وقلنا أنه كما أن كل إنسان ، على الرغم من تفرده لا يستطيع أن يعيش منفردا ، وهذه حقيقة نبه عليها منذ زمن طويل فيلسوف اليونان الشهير أرسطو ، وعبقري المسلمين ، ابن خلدون ، فكذلك الأنساق المعرفية ، كل منها له أنساق أخرى يغذيها ويدعمها ، ويعتمد هو كذلك على علوم أخرى ، من أجل هذا نسعى من خلال الفصل الحالى أن نرسم معالم خريطة لعدد من العلوم ذات الصلة بتاريخ التربية ، كى نبين ، كيف ، وإلى أى حد يستطيع هو أن يفيد بعضها منها ، وكيف ، وعلى أى وجه لابد أن يعتمد كذلك بدوره على بعض آخر .

#### أولا - علاقة تاريخ التربية ببعض العلوم التربوية الأخرى :

ترى : ما علاقة الدراسات التاريخية فى التربية ببعض العلوم والدراسات التربوية الأخرى ؟ وما الدور الذى يمكن أن تؤديه بالنسبة لها ؟

من الناحية اللاحقية فإن دراسة التاريخ التربوى تقع فى نطاق قسم أصول التربية فى جميع كليات التربية بمصر ، ( وبعض الدول العربية الأخرى ) ، باستثناء كلية التربية

بجامعة الأزهر ، حيث تقع ضمن اختصاصات قسم الإدارة والتخطيط التربوى ، ولا ندرى - حقيقة - ما العلاقة بين " الإدارة التربوية " و" التخطيط التربوى " وبين تاريخ التربية ؟ وربما قد يفسر هذا أن نفس القسم يضم " التربية المقارنة " ، اعتمادا على وجهة نظر يدعو لها بعض الزملاء المتخصصين فى التربية المقارنة ، حيث يرون أن الدراسة التاريخية للتربية قرينة الدراسة المقارنة وهى أقرب إليها منها إلى أصول التربية .

ولسنا هنا فى مجال مناقشة هذه القضية تفصيلا ، إذ ربما تتحول المناقشة إلى دروب أخرى لا نود الدخول إليها ، إذ أبسط ما يقال عن معيار " المناسبة " أو " الملاءمة " أن نطرح تساؤلا مؤداه : وهل هناك علاقة بين " الإدارة التربوية " و" التربية المقارنة ؟ وإنما ينبغى علينا أن نفرق بين جاتبين : أولهما : التاريخ التربوى كمنسق معرفى قائم بذاته ، وثانيهما : التاريخ التربوى كمدخل أو كنهج يعين على دراسة موضوعات تربوية ، فهو ، كمنسق معرفى قائم بذاته ، له بطبيعة الحال علاقة قبرى واتصال وتبادل التأثير والتأثر بمختلف الدراسات التربوية ، ويأتى على رأسها بطبيعة الحال : أصول التربية وفلسفتها واجتماعياتها ، مما سوف نبينه تفصيلا فيما بعد .

والتأريخ ، مدخلا ، ونهجا ، هو " أداة " تستخدم فى مختلف الدراسات التربوية ، مما سنبينه كذلك بعد قليل ، فإذا كان من المفضل أن يبدأ البحث التربوى ، عموما ، وأيا كان مجال التخصص ، بتقديم " إطلالة " تاريخية ، على سبيل التمهيد والمقدمات ، فلا يعنى هذا أن يصبح تاريخ التربية مجال تنازع بين التخصصات التربوية جميعا كل منها تزعم أنه جزء من كيانها ، وهكذا الشأن بالنسبة للتربية المقارنة ، إذ لا يستطيع إنسان أن ينكر أن دراسة أى نظام للتعليم فى بلد ما أو أية مشكلة من المشكلات التعليمية ، يمكن أن تتم دون الاستعانة بدراسة الأوضاع الماضية ، لكننا هنا نكون إزاء عملية " تأريخ " لا ينبغى أن تتجاوز دورها " كمخل " أو " منهج " .

لقد كاتت التربية المقارنة ، حتى نهاية الخمسينات ، تسير على أساس المنهج التاريخى الذى وضعه " كاندل Kandel " وسار عليه كل من تأثر به من رواد التربية

المقارنة من أمثال " هاتز Hans " و " شنيدر Schneider " و " مالينسون Mallinson " ، وهو المنهج القائم أساسا على وصف النظام التعليمي أو جاتب من جوانبه ، ومحاولة تفسيره فى ضوء التراث التاريخى للمجتمع ، وكذلك المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية السائدة فيه ، حيث تتفاعل هذه المتغيرات فيما بينها وتتعمس انعكاسا واضحا على نظام التعليم ، كما تتعمس على الحلول التى تأخذ بها مجتمعات معينة فى مواجهة مشكلاتها التربوية (١) .

إن كثيرا من باحثى التربية ، فى مجالاتها المختلفة ، يجدون لزاما عليهم ، أحيانا ، استخدام المنهج المقارن ، للمقارنة - مثلا - بين منهج دراسى يقوم على النشاط ومنهج دراسى آخر يقوم على المادة الدراسية ، طريقة تدريس فى القراءة تقوم على " الكلية " ، وطريقة تدريس أخرى تقوم على " الجزئية " بتفصيل الحروف وتعلمها أولا ، اتجاه فى علم النفس مثل التحليل النفسى ، واتجاه آخر مثل الاتجاه السلوكى ، نظرية فى التعلم مثل نظرية " بافلوف " ، ونظرية أخرى مثل نظرية " هل " ، وفى فلسفة التربية يمكن أن نقارن بين فلسفة التربية الماركسية وفلسفة التربية البراجماتية ، لكن استخدام المنهج المقارن هنا لا يعنى أن يتخصص كل هؤلاء فى " التربية المقارنة " كنسق معرفى قائم بذاته ، له علماءه وأساتذته وخبراؤه ، وباحثوه . وهكذا ، نفس الشئ ، على وجه التقريب ، يقال عن باحثى التربية المقارنة عندما يستخدمون المنهج التاريخى حيث لا ينبغى أن يعنى ذلك ، التحول إلى التخصص فى التاريخ التربوى كنسق معرفى قائم بذاته .

بل إن هناك علماء أفاضل فى التربية المقارنة هاجموا استخدام المنهج التاريخى فى دراستها ، يقف على رأس هؤلاء " براين هولمز B.Holmes " حيث أتاحت لنا فرصة الحوار الشخصى المباشر معه أكثر من مرة فى معهد التربية بجامعة لندن فى ربيع ١٩٨٢ ، وأثبت رأيه هذا فى كتابه المعروف عن مدخل المشكلات فى دراسة التربية المقارنة **Problems in Education . A Comparative Approach** . فقد وجه هولمز النقد للمنهج التاريخى فى دراسة التربية المقارنة ، حيث ينصب الاهتمام على وصف النظم التعليمية وتفسيرها فى ضوء العوامل والقوى السائدة فى المجتمع والتى أثرت فى هذه النظم ، دون أن تهتم بالتنبوء الذى يمكن أن

يجعل من التربية المقارنة أداة للتخطيط التربوي والإصلاح التعليمي ، فقد انتقل مركز الاهتمام من الماضى والحاضر إلى المستقبل ، فبدلاً من الاهتمام بوصف وتفسير المشكلات التربوية والبحث عن العوامل فى الماضى والحاضر التى سببت هذه المشكلات ، اتجه الاهتمام للبحث عن أنسب الحلول من خلال بدائل السياسات التربوية التى تنتجها دراسة التربية المقارنة (٢) .

وإذا كان التاريخ التربوي نعتبره عضواً فى عائلة أصول التربية ، إلا أننا يجب أن نعرف بأن هناك بعضاً من الباحثين " يميعون " الحدود بين التاريخ التربوي وكل من " الأصول الفلسفية للتربية " ، و " فلسفة التربية " ، وينشأ التداخل الذى يربك القارئ ، فضلاً عن الباحث . وهؤلاء لهم عذر بطبيعة الحال ، لأننا ينبغي أن نعرف بأن الحدود بين العلوم التربوية ، هى فى بعض الأحيان ما تكون كالحدود السياسية ، معظمها لا وجود له على الطبيعة ، لكن لا بد مما ليس منه بد حتى تتحدد البحوث وتكتسب ما هو مفترض فيها من العمق .

إن الأصول الفلسفية عند كثيرين تعنى البحث عن أثر الفلسفات المتعددة على الفكر والتطبيق التربوي ، ومن هنا يبحثون فى فلسفة أفلاطون وأرسطو ولوك ، وغير هذا وذلك من عمالة الفكر الفلسفي . بيد أن هذا العمل نفسه هو عمل أساسى يقع فى نطاق مهمة مؤرخ الفكر التربوي . ومن هنا فإننا ننصح باحثى الأصول الفلسفية بأن يقتصرُوا على الفلسفات المعاصرة ، كالماركسية ، سواء الكلاسيكية أو الجديدة ، والبراجماتية ، والبنائية ، والتحليلية ، والوجودية ، وغير هذه وتلك من الفلسفات الكبرى ، من أجل بيان ما أدت إليه هذه الفلسفات من آثار على حركة الفكر والتطبيق التربوي .

ونفس الشيء ، إلى حد كبير ، يحدث بالنسبة لفلسفة التربية ، فهى - من وجهة نظرنا - الدراسة التحليلية الاجتماعية الفلسفية للمفاهيم والمشكلات والنظريات التربوية ، لكن البعض ، نجده عندما يعرض لمفهوم مثل " الطبيعة الإنسانية " ، يعود إلى ما قاله مفكرو التربية منذ عصور قديمة ، ربما تصل إلى قدماء اليونان ومن تلاهم ، فهذا أيضاً مما يدخل فى مهام التأريخ للتربية ، وبالتالي فإن مهمة فلسفة التربية ،

هي دراسة المفاهيم والمشكلات والنظريات التربوية المعاصرة ، تاركة لتاريخ التربية أن يوضح الجذور والتطور الماضى . ولو التزم باحثو فلسفة التربية بذلك لربما قللوا من الاهتمام بمناقشة مفهوم مثل الطبيعة الإنسانية ، فهذا المفهوم ، إذا كان قد مثل موضع اهتمام من فلاسفة التربية أمس ، فهو لا يمثل نفس الأهمية اليوم ، لأن الدراسات النفسية ، قد وسعت من بحوثها ودراساتها بحيث لم يعد هناك مجال لفلاسفة التربية أن يتناولوه ، هو موضوع يقع فى تاريخ التربية ، لكنه لم يعد ملائما لأن يكون موضوعا لفلسفة التربية ، بالمعنى الذى أشرنا إليه .

وقياسا على هذا ، نطبق نفس الحكم على باقى دراسات أصول التربية . فدراسة اقتصاديات التعليم ، إذ تنصب على الجوانب الاقتصادية للظواهر التربوية ، والجوانب التربوية للظواهر الاقتصادية ، فإن لهذه العلاقة بالضرورة " تاريخ " لابد أن يعرف ويدرس ، وهناك بالفعل من درس قضية " تطور العلاقة بين الاقتصاد والتعليم " ، فمثل هذه الدراسة ، هل تعد موضوعا من اقتصاديات التعليم أم موضوعا من موضوعات تاريخ التربية ؟ من وجهة النظر التى نؤكد لها هي من موضوعات تاريخ التربية ، اعتمادا على أن اقتصاديات التعليم مفروض أن يتجه إلى الحاضر والمستقبل ، تاركا " ماضى " الظاهرة للدراسة التاريخية .

وقل مثل هذا على الدراسات الأصولية لتعليم الكبار ، ومحو الأمية ، واجتماعيات التربية . إن هذه التفرقة التى نقترحها أشبه بتلك التفرقة بين التاريخ السياسى والسياسة ، فالتاريخ السياسى هو سياسة أمس ، والسياسة هي تاريخ اليوم ، أفليس لنا ، قياسا على هذا أن نقول بأن تاريخ التربية هو أصول تربية أمس ، بكل فروعها الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية . . الخ ، وأن أصول التربية ، عملية تأريخ لتربية اليوم !؟

فإذا جئنا لمجال المناهج وطرق التدريس ، نجد أن ما أقيم من حواجز بين الأنساق التربوية ، قد أدخل قطاعا هاما من قطاعات التأريخ إلى دائرة التعميم والتجاهل ، هذا القطاع هو القطاع الخاص بتطور المناهج الدراسية المختلفة . لقد نقل عن البعض أن المتخصصين فى مناهج التعليم هم " أسطوات " تربويون ، إشارة إلى أن عنايتهم

الأساسية تتجه إلى بناء مناهج كى يتعلمها الطلاب الحاضرون أو الذين سوف يأتون فيما بعد ، وتطوير هذه المناهج . لكننا نؤكد أن هذا التشبيه إذا كان صحيحا ، إلا أنه لا ينفى بطبيعة الحال أن المسألة ليست " فنية " بحتة ، فهي " علم " أولا ، وبالتالي فإذا كان اهتمام باحثى المناهج ينصب على حاضرها ومستقبلها ، فلا بد أن تكون هناك دراسات عن ماضيها وتطورها ، ومثل هذا القطاع من الدراسات يفضل أن يكون مشتركا بين باحثى تاريخ التربية والمناهج بالنسبة لبعض الموضوعات .

وما يحدث فى مجال المناهج وطرق التدريس ، له شبيه فى الدراسات النفسية ، فالنزعة " العملية " التى ترى أن الجهد ينبغى أن يتصدى لحاضر الظاهرة ومستقبلها ، قد أدى إلى غياب هذا النوع من الدراسات التى تسعى إلى الكشف عن تطور البحث فى ظاهرة ما من الدراسات النفسية ، وإن كان الأمر ربما لا يخلو ، فى كثير من الدراسات ، من إعطاء " نبذة " تاريخية ، فإذا كان الموضوع خاصا بالاختبارات والمقاييس النفسية ، فغالبا ما يسعى الباحث إلى إعطاء القارئ صورة موجزة عن الجهود السابقة التى من خلال تطورها ، وصلت الاختبارات والمقاييس إلى ما وصلت إليه فى وقتنا الحالى من تقدم .

## ثانيا - ضرورته للعلوم الأخرى :

وإذا كان موضوع التاريخ هو " الماضى " ، فليس معنى ذلك أن العلوم الأخرى تهمل هذا الماضى كلية لتتجه إلى " الحاضر " ، فللقائون تاريخه ، وكذلك للفن ، وللأدب ولل فلسفة وللإجتماع ، بل للطب وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، فهناك دراسات عن تاريخ الكيمياء ، وتاريخ الفيزياء ، وتاريخ الرياضيات ، وكذلك العلوم التطبيقية ، فنجد هناك دراسات باسم تاريخ العمارة ، على سبيل المثال ، وتاريخ بعض الصناعات . وهناك المرجع الضخم الشهير لجورج سارتون ( تاريخ العلم ) ، ولنفس المؤلف مرجع ضخم أيضا باسم ( تطور الفكر السياسى ) . ولعلنا نلاحظ أن هناك بعض القطاعات المعرفية التى تجعل " تاريخها " هو موضوعها الأساسى ، كما يرى البعض من المتخصصين فى دراسة الفلسفة ، ويستند هؤلاء فى ذلك إلى أن كثيرا من موضوعات الفلسفة وقضاياها ما زال مثار تفكير وموضوع بحث . وكذلك الأمر بالنسبة للأدب

وتاريخه ، فهو عادة ما يدرس فى صورة " حقب " تاريخية ، فنجد هناك " الأدب الجاهلى " و" الأدب فى العصر العباسى " و" الأدب فى عصر المماليك " ، وهكذا . ونفس الشيء فى دراسة الأدب الغربى ، بل وكل أدب من آداب العالم .

بل نحن نذهب إلى ما هو أبعد من هذا ، عندما نؤكد أن كل عالم ، أو أديب ، أو فنان ، لا غنى له فى علمه أو فنه من أخذ الماضى بعين الاعتبار والتأثر به إلى حد قريب أو بعيد ( ٣ ) ، فالطبيب حين يعالج الداء ، يبدأ أول ما يبدأ بالسؤال عن نشوئه وتطوره ، وعما اعترى المريض من علل سابقة . والفلكى الذى يتتبع تكون العالم والأجرام السماوية ودوران الكواكب فى أفلاكها ، لا بد له من أن ينظر إليها فى تحولها عما كانت عليه إلى ما هى الآن ، وإلى ما ينتظر أن تكون . والكيميائى ، إذ يخضع مادة من المواد لعملية بعينها ، يدرس تغيرها من حال إلى حال ، من " ماض " إلى " حاضر " ، أو من " حاضر " إلى " مستقبل " . والعالم الاجتماعى - أيا كان تخصصه ، لا يستطيع دراسة المشكلات التى يعالجها ، إذا لم يأخذ بعين الاعتبار ، الجذور التى نبتت منها والتبدلات التى طرأت عليها . وهكذا الأمر فى العلوم الأخرى ، الطبيعية منها والبشرية ، فكلها تهتم بماضى الحقائق المتعلقة بموضوعها ، وتتنظر إليها ك" أحداث " ، وإن كان هذا النظر والاهتمام على درجات متفاوتة وبأشكال مختلفة ، حسب طبيعة كل منها .

أما الأديب والفنان ، فهل بإمكان أى منهما ، إذ ينتج ، أن ينعزل عن خبراته السابقة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذى نشأ فيه والتقاليد السائدة فى محيطه وعصره ؟ ذلك أمر مستحيل ما دام الإنسان ، أى إنسان ، وليد أحداث وملتقى عوامل متطورة مطورة تعمل فى نفسه وفى مجتمعه . ومن الأمثلة المبرهنة على ذلك ، من يقرأ ثلاثية نجيب محفوظ ، سوف يجد مساحة واسعة لأحداث التاريخ المصرى فى فترة ثورة ١٩١٩ بصفة خاصة ، وهالة واضحة تحيط بشخصية سعد زغول ، لأن المؤلف نفسه ، شهد هذا وهو صبى صغير وحفرت فى وجدانه ، حتى إذا بدأ بيدع أدبا وروائيا ، أطلت هذه الوقائع والأحداث برأسها . وعندما ينظر الإنسان إلى تمثال نهضة مصر للفنان محمود مختار ، يستطيع أن يشعر بالفعل بالكثير من المقومات الأساسية

لمصر ، وكيف أن هذا التمثال كان أحد ثمرات تلك النهضة الكبرى التى ولدتها الثورة الشعبية فى ١٩١٩

فالتاريخ إذن هو من هذا الوجه ، مناسب فى شتى العلوم والآداب ، مرتبط بها متفاعل وإياها ، ولكنه يتميز عنها من حيث اتصابه على الماضى بالذات ، بينما تتجه هى إلى أغراض وغايات أخرى (٤) .

إن الهم الأول للأديب أو الفنان هو روعة إنتاجه المستمد من عمق خبرته ومن مقدرته على رؤية الجمال والتعبير عنه ، هذه الروعة هى مثله الأعلى ، ومقاييسها هى المقاييس التى يخضع لها ، والتى على أساسها يحكم له أو عليه . أما تحديد منشأ هذه الروعة والمنابع التى صورت منها ، فهو من وظيفة العالم النفسى أو المؤرخ الفكرى أو الاجتماعى . وللتأريخ منها نصيب واف فى الحالة الأولى ، والنصيب كله فى الحالتين الأخرين . ومن هنا كان لازما فى إنتاجنا الأدبى ومناهجنا التربوية أن نميز تمييزا دقيقا بين الأدب وتأريخه ، إذ أن التباس أحدهما بالآخر يقوى الارتباك بينهما ، وإلى ضعف الإنتاج واضطرابه فى كل منهما .

وإذا كان هذا مما يتصل بضرورة التأريخ للعلوم المختلفة ، لكن ، بماذا تفيد دراسة تاريخ العلوم الأخرى باحث التاريخ التربوى ؟ هذا هو موضوع الجزء التالى ، لكننا نود هنا أن نشير إلى مثال من بعض هذه العلوم مما سوف قد يأتى ذكره ، فنحن أثناء تأريخنا للتربية والتعليم فى مصر فى العصور القديمة ، إذ وجدنا شحا فيما يتصل بالتعليم مباشرة ، وقلبنا صفحات فى تاريخ الفنون المصرية القديم ، وكذلك الطب والصيدلة ، وجدنا مادة ثرية تكسب هذا التأريخ أبعاد حضارية متعددة الجوانب ، مختلفة الأشكال .

### ثالثا - العلوم المساعدة للتأريخ :

أشرنا أكثر من مرة إلى أن أنواع المعرفة ، إذ تتداخل وتتشابك فيما بينها ، لا يمكن أن يدرس علم معين مستقلا بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم أو المعارف ،

فمثلا ، لا يستطيع الدارس أن يفهم القرآن الكريم حق الفهم ، بحيث يستطيع أن يشارك في جهود تفسيره ، دون أن يحسن معرفة اللغة العربية ، وعلوم القراءات ، والفقه ، والحديث النبوى الشريف ، والتصوف ، والأدب العربى والتاريخ والجغرافيا الخاصين بالعالم العربى بصفة خاصة . وكلما زادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه واستيعابه لمعانى القرآن الكريم .

والدارسون " لأصول التربية " بصفة خاصة يعلمون علم اليقين أن هذا المجال - بطبيعته وبتحليل اسمه - إنما يقوم على دراسات فى السياسة والاقتصاد ، وكذلك التاريخ وعلم الاجتماع وعلوم الدين والأنثروبولوجى وعلم النفس .

وإذا كان تاريخ التربية فرعا من فروع أصول التربية ، فهذا الحكم ينطبق عليه كذلك ، لكنه ، من ناحية أخرى ، ينفرد باحتياجه الأساسى إلى عدد آخر من فروع المعرفة الإنسانية ، التى ربما لا يحتاج إليها هذا الباحث أو ذاك من باحثى فروع أصول التربية الأخرى . فمن الضرورى لمؤرخ التربية أن يكون واسع الثقافة ، عارفا بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابه . ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة لمؤرخ التربية أو لغيره من الباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم ، بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصلة ، كما اصطلاح على تسميتها لدى الجمهور الكبرى من الباحثين . ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتتقارب بالنسبة لدارس تاريخ التربية باختلاف العصر أو الناحية التى يرغب فى دراستها والكتابة عنها ، فالعلوم المساعدة اللازمة لدراسة تاريخ التربية فى عصر النبوة ، تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لدراسة تاريخ التربية الأوربية فى العصور الوسطى ، أو تاريخ التعليم فى عهد الدولة العثمانية (٥) .

إن عملية التأريخ - كما سنبين تفصيلا فيما بعد - تتركز بالدرجة الأساسية على عملية " نقد " متعددة المستويات يصعب القيام بها دون مستوى أدنى من العلم ببعض التخصصات ذات الصلة ، وتوضيحا لذلك نشير إلى أن عملية التأريخ التربوى ، إذ تبدأ بجمع الوثائق المفيدة المتصلة بموضوع البحث ، فإن الأمر بين إحدى خصلتين : فإما أن تكون هذه الوثائق قد خضعت لتمحيص نقدى ، وإما أن تكون على حالها ، وعلم هذا يكون بأبحاث " مرجعية " تكون جزءا من التحقيق الممهّد لكل عملية منطقية ، وفى

الحالة الأولى ( أى التى تكون الوثائق فيها قد خضعت للتحخيص ) يجب أن نكون قادرين على التحقق مما إذا كان النقد قد تم على الوجه السليم . وفى الحالة الثانية ( أى التى تكون المواد فيها على حالها ) يجب أن نقوم نحن بأنفسنا بالنقد . وفى كلتا الحالتين ، لا غنى عن بعض المعارف الإيجابية السابقة ، والمساعدة ، التى ، كما يقال ، لها من الأهمية ما لمهارة التفكير السليم ، إذ لو أخطأنا أثناء العمليات النقدية بإساءة التفكير ، فإن من الممكن كذلك أن نخطئ بسبب الجهل . ومهنة العالم المحصل أو المؤرخ تشبه فى هذا معظم المهن ، فمن المستحيل ممارستها دون أن تكون لدى المرء بضاعة خاصة من المعلومات الفنية لا تغنى عنها المواهب الفطرية ولا المنهج (٦) .

وعلى سبيل المثال فالعلماء المختصون بأوراق البردى يمدون مؤرخ التربية القديمة بما لديهم من نصوص كتبت سواء بلغة هيروغليفية أو هيراطيقية أو ديموطيقية أو يونانية ، وعلماء الأنساب يبرهنون على صحة تسلسل النسب ، ويقدمون الجداول الخاصة بذلك ليستفيد منها المؤرخ . والمفهرسون فى دور الكتب يمدون المؤرخ بالمعلومات اللازمة عن الكتب والمؤلفين عن طريق الفهارس والكتالوجات لمساعدته فى إعداد دراساته ، والمختصون بالعلوم الاجتماعية والنفسية الذين يقومون بعمل الإحصاءات عن تعداد السكان ، والتطور الاجتماعى ، الأمر الذى لا غنى عنه لمؤرخ التربية (٧) .

ومن الأمثلة كذلك ، علم " حساب التواريخ " ، وهو العلم الذى يسهل للمؤرخ مسألة هامة وهى مسألة قياس ومقارنة الزمن وضبطه (٨) ، فعالم حساب التواريخ يشرح التقاويم والتواريخ العديدة التى كانت مستعملة - أو لا تزال - ويجعل بمقدورنا أن نحول التواريخ من تقويم إلى آخر ، وهذا أمر على غاية كبرى من الأهمية بالنسبة للمؤرخين ، فقد تواجه الكثيرين منهم بعض التواريخ الهجرية أو العبرية أو القبطية ، ويحرصون على معرفة تعادله فى التاريخ الميلادى مثلا ، فكتب ومصنفات التقاويم تحل هذه المشكلة ، وتعرف المؤرخ أن هذا التاريخ الهجرى يعادله ذلك التاريخ الميلادى ، أو العكس ، وهكذا . ومصنفات التقاويم الأجنبية والعربية موجودة فى المكتبات العامة ويمكن الاستعانة بها لدى الدارسين والباحثين والطلاب . وفى الفترات الأخيرة أمكن ترتيب هذه التقاويم اعتمادا على الكمبيوتر . ومن المعروف مثلا أن الدولة العثمانية

اتبعت في بعض فتراتها التاريخية التواريخ الهجرية والشمسية والميلادية ، وكذلك كان لها سنة مالية تختلف عن السنة الميلادية المعروفة ، ويصبح من واجب المدارس لتاريخ التربية في العهد العثماني أن يقارن بين هذه التواريخ المختلفة (٩) .

ومن هنا يبرز السؤال : من أي الأشياء إنن يجب أن تتكون التنشئة الفنية للعالم المحصل أو المؤرخ ؟ ، وبعبارة ربما تكون أكثر صراحة ووضوحا : ما هي العلوم المساعدة للتأريخ ؟

لقد تساءل " دونو Daunau " في كتابه ( محاضرات في الدراسات التاريخية ) على نحو مشابه ، فقال : " ما هي الدراسات التي سيحتاج إليها من يكرس نفسه لكتابة التاريخ ؟ وما هي المعارف التي لا بد له أن يكون قد حصلها كيما يبدأ وهو أمل في النجاح ؟ ومن قبله اعترف " مابلي Mably " في كتابه ( مبحث في دراسة التاريخ ) : " بأن هناك دراسات تحضيرية لا يمكن للمؤرخ أيا كان شأنه أن يستغنى عنها " (١٠) .

وقبل أن نسوق أمثلة مفصلة بعض الشيء للعلوم المساعدة ، من الضروري إثبات عدد من الملاحظات نرى ضرورة أخذها بعين الاعتبار :

أولا - أن جميع العلوم التي تسمى علوم مساعدة ليست " علوما " بالمعنى الدقيق ، فعلم الشهادات المكتوبة ، ومصنفات التقاويم ، والتاريخ الأثني ليست غير كشافات منهجية بالوقائع التي حصلها النقد ، والتي من طبعها أن تسهل نقد الوثائق التي لم تنقد بعد ، وعلى العكس من ذلك ، نجد علم الجغرافيا علم منظم وله قواعده وقوانينه (١١) .

ثانيا - يجب التمييز في داخل المعارف المساعدة لا للتاريخ التربوي بالمعنى الصحيح بل للأبحاث التاريخية ، بين المعارف التي ينبغى على كل باحث أن يحصلها ، ومن تلك التي يحتاج إلى معرفة أين توجد فقط ليرجع إليها عند الحاجة ، بين تلك التي يجب أن تصبح " مهارة " راسخة فيه ، وتلك التي تبقى على هيئة مطومات يتزود بها كلما أراد ، فالباحث في التربية الغربية في العصر الوسيط يجب عليه أن يعرف قراءة وفهم

نصوص من العصور الوسطى ، ولن يفيد شينا أن يكرس فى ذاكرته معظم الوقائع الخاصة بالتاريخ الأدبى وبعلم الشهادات الكتابية المسجلة فى مكانها ضمن المتون الكشافة للتاريخ الأدبى ولعلم الشهادات الكتابية ( ١٢ ) .

ثالثا - لا توجد معارف مساعدة للتاريخ التربوى ( وللأبحاث التاريخية ) بوجه عام ، أى تفيد كل الباحثين على سواء أيا كان الجزء من التاريخ الذى يتناوله بالدرس ، ولهذا لا يبدو أنه هناك جواب عام عن السؤال السابق طرحه ، وهو مم يجب أن يتألف الإعداد الفنى للعالم المحصل أو المؤرخ التربوى ؟ فهذا يتوقف على : الجزء من تاريخ التربية الذى يطمح إلى دراسته ، فلا فائدة من معرفة اللغة التركية لمن يريد دراسة تاريخ التعليم فى مصر فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، لكنها ضرورية لمن يدرس العهد العثمانى أو فترة حكم محمد على وخلفاؤه ، حتى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ، ولابد ، بطبيعة الحال ، لمن يدرس التربية فى الحضارة اليونانية أن يعرف اليونانية ، لكنها ليست ضرورية لمن يدرس التربية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن الثامن عشر . . . وهكذا .

ومن هنا فعلى أن نقول أن " التنشئة الأولية " لكل من يريد القيام بأبحاث أصيلة فى التاريخ يجب أن تتكون من ( إلى جانب " التعليم المشترك " ، أى الثقافة العامة التى يتحدث عنها " دونو " ) جميع المعارف الكفيلة بتزويده بوسائل الكشف عن الوثائق وفهمها ونقدها ، وهذه المعارف تختلف تبعا لناحية التخصص فى هذا القسم أو ذلك من أقسام تاريخ التربية . ومن الملاحظ أن الإعداد الفنى بالنسبة لمن يبحث فى التعليم الحديث والمعاصر ، يكون قصير المدة الزمنية ، وسهلا إذا قيس بمثيله عندما يريد الباحث أن يدرس قضية تتصل بالتاريخ القديم ، أو حتى العصور الوسطى ( ١٣ ) .

ونستطع الآن بعد هذه الملاحظات أن نشير إلى أهم العلوم التى ينبغى على الباحث فى التاريخ التربوى أن يقف على ما يتصل بموضوع بحثه منها :

١ - اللغات : فمعرفة من أهم الخطوات على طريق التأريخ العلمى الدقيق لتطور التربية فى مجتمع من المجتمعات ، إذ لابد من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع

التاريخي المراد بحثه والكتابة عنه كما سبق أن أكدنا ، فإذا كان الموضوع هو التربية في مصر في العهد القبطي ، مثلا ، يصبح من الضروري على الباحث أن يكون عارفا باللغة أو اللغات التي كانت سائدة ، فهي التي دونت بها سائر الوثائق الخاصة بهذا العهد ، والتي بدون الاطلاع عليها يصعب الاطمئنان إلى نقة وعلمية نتائج البحث . والبحث في حالة التربية الغربية في عصر النهضة الأوروبية ، مفروض فيه أن يكون على دراية كافية باللغة الإيطالية . . . وهكذا .

وبالتالي يصبح من الأمانة العلمية ألا يقدم باحث على دراسة فترة تاريخية في تطور التربية وهو يعلم بجهله بلغة هذه الفترة ، إلا إذا عزم وشمر عن ساعد الجد لمعرفة هذه اللغة . وقد طالب الفيلسوف الألماني " شليجل Schlegel " دارسي التاريخ الألماني بأساس لغوي قوى يمكن الباحثين من البحث في السجلات . وانتقد ظاهرة أن ما قام به الأجانب - كما ذكر - أكثر بكثير مما أنجزه الباحثون الألمان ، وكان لمقاله هذا فضل كبير في الحث على ما عرف بدراسة اللغويات التاريخية ( ١٤ ) .

ولعلنا نلاحظ أن أي باحث من الباحثين الأجانب ، إذا أراد أن يبحث في فترة تاريخية تتصل بتاريخ التربية في مصر ، لا يعتمد فقط على ما كتب بلغته الأجنبية ، رغم أنه كثير ، لكنه يحرص الحرص كله على تعلم اللغة العربية ، بل ولا يكتفى بتعلم هذه اللغة من القواميس وفي معاهد تعليمها ، وإنما يحرص على أن يعيش فترة من الزمن بين أهل البلد أنفسهم ، إذ كثيرا ما تكون اللغة المعاشة أكثر دلالة على حقائق ، لا تشير إليها بدقة اللغة المكتوبة ، وخاصة في اللغة العربية .

ولا شك أن الاعتماد على ما نشر من مجموعات الوثائق أو الاتفاقيات ، لا يفي بحال من الأحوال ، ولا بد أن يطلع الباحث بنفسه على الوثائق الأصلية ويختار منها هو ما يرى نشره أو استخدامه وما يلقى الضوء على موضوع بحثه وما يؤيد رأيه أو ينقض رأيا شائعا ، إلى غير ذلك ، فهذه هي الإضافة الحقيقية المطلوبة من الباحث . وعلى سبيل المثال ، يجد الباحث في التعليم في عصر محمد علي أن د . أحمد عزت عبد الكريم قد نشر معظم ما يتعلق بتعليم هذه الفترة ، وكان مؤرخنا على درجة عالية من الدقة والأمانة العلمية ، بحيث يمكن للباحث أن يعتمد على ما نشره ، لكن الأفضل

أن يطلع الباحث الجديد على بعض منها على الأقل ، فلربما كانت قراءة مؤرخنا مختلفة التوجه ، ولربما ترك أمورا لم يرى لها أهمية ، بينما قد يرى الباحث الجديد أهمية لها ، وربما فسر أمورا استنادا إلى وقائع ، إذا أعيدت قراءتها نصل إلى تفسيرات أخرى . . . وهكذا .

ومما يذكره باحثو التاريخ ، أن تاريخ مصر الفرعونية ظل مجهولا إلى حد كبير إلى أن استطاع العالم الفرنسي الشهير " جان فرنسوا شامبليون J.F.Champollion " عام ١٨٢٢ أن يهتدى إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية ، ذلك أن المؤرخ تمكن بذلك من الاطلاع على النصوص والنقوش والكتابات على أوراق البردي . كذلك ، فمنذ أن تمكن العالم البريطانى " السيرهنرى رولنسن S.H.Rawlinson " بين أعوام ١٨٤٧-١٨٥٠ من حل رموز الكتابة المسمارية لبلاد ما بين النهرين بدأت الدراسات التاريخية والأثرية تظهر تباعا عن تلك المنطقة وتعمل على إمطة اللثام عن عالم مجهول التاريخ القديم (١٥) .

وكذلك ينبغي على الباحث فى تاريخ التربية أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوربية الحديثة الشائعة الاستعمال ، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية ، وإن قصر فى معرفة بعضها ، يمكن أن يواظب على دراستها حتى يبلغ المستوى الذى يتيح له فرصة الإفادة بها ، وهذه لغات غنية بتراتها الأدبى والتاريخى ، ويجتذب انتشارها كثيرا من الباحثين فى التاريخ إلى التأليف فيها ، ولا يجوز أن يفوت الباحث الدراسات التاريخية الثمينة الرائعة التى أثمرتها بعض هذه اللغات ، أو كلها (١٦) .

من أجل هذا ندب عدد من الباحثين أنفسهم فى مجالات التاريخ القديم والوسيط والحديث على إعداد قواميس مساعدة ، لا تقوم بمهمة الترجمة بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الألفاظ والتعابير التى كانت شائعة فى عصر ما ، فالباحث ، مثلا ، فى تاريخ التربية فى حقبة تقع فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، قد يكتفى بضرورة معرفة اللغة التركية ، مطمئنا إلى أنه باعتباره عارفا باللغة العربية ، فسوف يستطيع أن يقرأ ويفهم ما يصل إلى يديه من نصوص ووثائق ، لكن هذا غير صحيح ، فكم هناك من ألفاظ ومصطلحات وتعبيرات عربية ، هجرت وحل محلها غيرها ، وهذا

واضح فى التاريخ الذى كتبه الجبرتى . ومن هذه القواميس الخاصة التى نشير إليها قواميس تاريخية " لدوزى Dozy " ولأب رفائيل نخلة اليسوعى : غرائب اللهجة اللبنانية - السورية . كما صدر كتاب للدكتور أحمد السعيد سليمان يفسر بعض التعابير الغربية الواردة فى تاريخ الجبرتى ، بعنوان ( تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ) . وقد تواجه الباحث بعض العبارات المختصرة وهو الأسلوب الذى اتبعه الأوائل ( ١٧ ) .

ولعل هذا ما يبرز لنا أهمية دراسة " الفيلولوجيا Philology " ، أو علم فقه اللغة ، وهو علم له أصوله وقوانينه الخاصة التى تفسر لنا تطور ألفاظ اللغة وقواعدها ، ذلك أن اللغة مثلها مثل الكائن الحى تنمو وتتطور ، فالإنجليزية فى القرن السادس عشر غيرها فى القرن العشرين ، والتركية التى كانت تكتب بحروف عربية منذ قرون غير التركية التى تكتب الآن بحروف لاتينية ، والمسألة ليست مجرد تغيير حروف ، وإنما يرتبط بذلك أيضا تحول ضرورى فى منطق اللغة وتراكيبها . وبالتالي فكلما بعد العهد الذى يشكل موضوع الدراسة برزت أكثر أهمية فقه اللغة ، على اعتبار أن اللغة ليست علامات جبرية أو أرقاما تستخدم كما فى العلوم الطبيعية للدلالة على معان وكميات محدودة ، وإنما تتغير بتغير الزمان والمكان واختلاط الثقافات . وفى بعض الأحيان قد يدل لفظ لغوى على معنى محدد تماما ، كما قد يدل لفظ لغوى على معان نسبية أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه ( ١٨ ) .

ومن يطلع على بعض نصوص ( كتاب الخصائص ) لأبى الفتح عثمان بن جنى ، يدرك أهمية دراسة فقه اللغة ، وعلم اللغة ، وكذلك دراسة اللهجات ، وعلى سبيل المثال ، فإن الجاهل باللهجات العربية السبع وبقهها ، أو كما كان يسميها العرب القدامى " اللغات السبع " ، يصبح من العسير عليه فهم النصوص وتحليها ، بالرغم من أنها لهجات أو لغات عربية ، فمعرفة هذه اللهجات وإتقان معانيها والدراسة بها لها الأولوية لمعرفة وفقه وفهم النصوص ، إذا كان موضوع البحث يتعلق بالتأريخ للتربية فى صدر الإسلام ( ١٩ ) .

ويندرج تحت هذا أيضا الخطوط واختلافها ومعرفة عصرها وزمانها ، وقد أصبحت دراسة الخطوط باعتبارها من العلوم المساعدة يسمى "علم قراءة الخطوط Paleography" ، وظهرت مؤلفات في هذا الموضوع تضم نماذج للخطوط المختلفة القائمة بالأقاليم والمناطق والعصور . وهذا العلم أصبح من المهارات الجديدة التي يجب على المؤرخ أن يهتم بها ويحاول أن يكتسبها . وتظهر أهمية قراءة الخطوط بصفة خاصة عند دراسة وتحقيق المخطوطات التي كتبها علماء تربية قدماء ، إذ أنه من الأهمية القصوى للباحث أن يحدد زمن نسخ المخطوط أو زمن كتابته اعتمادا على الخط الذي كتبت به (٢٠) .

٢ - علم الآثار Archaeology : وهو علم البحث عن أصول الحضارات حيث الجذور وتشكيل الذات ، وميدانه هو ما أنتجته يد الإنسان في العصور السابقة في كل مكان ، وهو من علوم التأخي بين الشعوب ، يفسر مراحل الأخذ والعطاء بينهما ، وعن طريقه تستطيع كل أمة أن تتعرف بصدق على منابع شخصيتها وقواعد بنياتها ، ويتكون لديها وعى علمي بتراتها المشترك الذي يحدد مكائنها بين مسيرة الأمم .

هذا وتمثل الدراسات الآثارية ، بطابعها النظري ، وميدانها العلمي مكانا بارزا بين الدراسات الإنسانية المتكاملة بما تقوم عليه من بحوث في خصائص العمارة والفنون والصناعات ، وما تؤدي إليه من بحوث في اللغات والعقائد والتاريخ ، وما تمارسه من بحوث في المجالات العلمية للكشف والتنقيب ، ولا ريب في أن الآثار بفروعها المختلفة هي التاريخ الحي لكل أمة ، وهي الشاهد القائم على ما بدأت به حضارة أهلها ، وما تطورت إليه ، وما أسهمت به في تاريخ البشرية ، كما أنها التعبير الصادق عن أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم في كل مرحلة من مراحل تاريخهم (٢١) .

من أجل هذا فقد صار مؤرخو العصور القديمة يعتمدون اعتمادا كبيرا على النتائج العلمية التي يتوصل إليها علماء الآثار الذين يقومون بحفر الأرض بمعاولهم ، ويقيمون تحت لهيب الشمس الحارقة بهدف كشف جوانب مجهولة من الحضارة ، وخاصة أن هؤلاء المؤرخين يجدون ماضي البشرية يبرز من خلال الآثار والمدونات من بقايا الماضي التي تركها السلف والتي تعد في بعض الأحيان المصدر الوحيد لبعض

حقب التاريخ القديم ، فقد أمدنا علم الآثار الفرعونية القديمة ، مثلا ، بمعلومات هامة عن الطقوس الدينية والحياة الأسرية والاجتماعية والحرف والتقاليد والعادات ، فضلا عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها مصر خلال هذه الأيام ، وهذه المعلومات في مجملها تعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص الناطقة ، وتستند على أساس من البيان الصامت الصادق الذي يترك المؤرخ أعمال القدماء ومخلفاتهم تحدث عن نفسها بهدف معالجة قصة الإنسان وحضارته خلال آلاف عبيدة من السنين ، والكشف عن نشأة الحضارة وتطورها ( ٢٢ ) .

٣ - الجغرافيا : فالظواهر الجغرافية ، كالسطح ، والمناخ ، والنبات ، وغيرها ، عظيمة الأثر في الأحداث التاريخية ، فإذا كانت الجغرافيا موضوعها هو ( المكان ) ، والتاريخ موضوعه ( الزمان ) ، فإن التطور الإنساني لا يتضح جليا إلا عند تفاعل المكان مع الزمان .

وقد ارتبط تاريخ عديد من الأقطار بموقعها الجغرافي ، بالإضافة إلى المعالم الجغرافية الأخرى ، ولعل تاريخ مصر من أبرز التواريخ التي يظهر فيها أثر موقعها الجغرافي في الركن الشمالي الشرقي من قارة إفريقيا ، وبسواحلها المطلية على البحرين المتوسط والأحمر ، وظهر ذلك طوال العصور ، فكان اتصالها مستمرا بالحضارات التي نشأت في حوض البحر المتوسط ، وإلى الدرجة التي جعلت مفكرا بارزا مثل طه حسين يدعو إلى توثيق الروابط بثقافة البحر المتوسط والبلدان التي تحيط به مؤكدا أن هذا هو المحيط الطبيعي للعقل المصري ، وأتينا أقرب إلى عقلية المتوسط منا إلى العقلية الشرقية .

وكان موقع مصر له أثره كذلك في الالتقاء بالحضارة الفينيقية ، ومن قبل حضارة الفرس ، ثم بالحضارة اليونانية ، فالرومانية ، وكل حضارة من هذه الحضارات لم تكن مجرد جيوش وغزو عسكري ، بل كان من الضروري أن يكون لها أثرها على الثقافة المصرية وعلى تكوين الشخصية المصرية ، والذي يحلل اللهجة المصرية والعادات الاجتماعية المصرية ، لا يفاجأ بأن يجد أثرا من كل حضارة من هذه الحضارات ، حتى اليوم . وهيات الصحراء الغربية الواسعة لمصر حماية طبيعية ، فلم تتعرض لجيوش

منظمة غازية من هذه الجهات في تاريخها إلا في فترات محدودة (٢٣) ، مما كان له أثره في افتقاد الاتصال الحضارى بالجوار الجغرافى الغربى . وإن كان التأثير الثقافى المصرى قد استطاع - على المستوى الفردى - أن يقهر هذه الصحراء ، وخاصة بعد أن استطلت مصر بالمظلة الإسلامية ، فهرع بعض الباحثين عن المعرفة الإسلامية إلى الأزهر يطلبون فيه العلم .

وتأثر تاريخ مصر الحديثة بهذا الموقع الفريد ، فكان أن جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون ، ومنذ ذلك الوقت بدأ التأثير الثقافى الغربى يعرف طريقه إلى الثقافة المصرية ، وخاصة التأثير الفرنسى . ثم زادت أهمية الموقع بعد حفر قناة السويس ، فحرصت انجلترا على أن تحتل مصر مما كان له دوره فى تأثير الثقافة الإنجليزية على التعليم والثقافة ، وشهدنا صراعا بين الثقافتين الفرنسية والإنجليزية على أرض الثقافة والتعليم ، فكان أن توزعت الآثار بينهما .

وللدكتور جمال حمدان دراسته الشهيرة لـ " شخصية مصر " حيث يبرهن على أن خصائص وطبيعة جغرافية مصر ، من حيث اعتدال المناخ ، والتجانس الملحوظ بين مختلف أنحاء البلاد ، قد أدت إلى أن تتسم الشخصية المصرية بقدر كبير من التجانس والتسامح والاعتدال ، ولعل هذا يفسر إلى حد كبير ، كيف أن الدولة الفاطمية ، رغم طول العهد بها فى مصر ، وإقامتها " الأزهر " مسجدا وجامعة تبث من خلاله مذهبها المختلف عما يذهب إليه أهل السنة ، لم تستطع أن " تجذر " تعاليمها وآرائها فى التعليم المصرى ، بل لقد تحول الأزهر إلى معهد للتعليم وفقا للمذهب الشائع من قبل ومن بعد وهو مذهب أهل السنة ، لقربه من طبيعة الشخصية المصرية التى لم تألف التطرف والغلو .

وموقع الجزر البريطانية نفسها أثر على تاريخها أبلغ الأثر ، فظلت بعيدة إلى حد كبير عن غزو أعدائها لها فى عقر دارها - يقال ذلك عن حروبها مع نابليون ، أو حروبها مع هتلر - ، كما كان لهذا الموقع أثره فى السيادة البحرية للإنجليز ، فاكتسبت أساطيلهم شهرة واسعة وحرصوا على تحطيم كل منافس لهم فى هذا المجال (٢٤) .

ولعل الدور الذى لعبه مناخ روسيا فى هزيمة الجيوش الألمانية فى الحرب العالمية الثانية ، ومن قبل ، فى إخفاق هجوم جيش نابليون عليها فى القرن الماضى ، لأكبر دليل على الأثر الجغرافى فى مجرى التاريخ ، فرغم أن الروس ، كانوا فى سنة ١٩٤٢ قد فقدوا خلال حربهم ضد الألمان الحقول الغنية بالقمح فى أوكرانيا ، والجهات الصناعية الهامة فى حوض الدينبر ، كما استحوذ الألمان على مناجم فحم حوض الدونتز وجميع أرجاء شبه جزيرة القرم - ما عدا سيياستبول - لكن حل شتاء روسيا القارس البرد على الألمان وهم يدكون أبواب موسكو وليننجراد ، فاستصى عليهم فتحها واضطروا إلى التراجع ، وانتهى الأمر بالتسليم فى ١٩٤٣/١/٣١ ، وهكذا تصافرت الطبيعة على هزيمتهم ، كما حدث من قبل لجيوشهم فى أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، فى معركة العلمين التى كانت نقطة تحول فى مصير الحرب فى ذلك الميدان الحيوى .(٢٥)

ومن المعروف أن هناك فرعاً خاصاً فى العلوم الجغرافية يعرف باسم " الجغرافية التاريخية " ، وهى التى تهتم بدراسة التطور التاريخى وحركات السكان المختلفة . كما توجد فروع جغرافية أخرى ، منها على سبيل المثال ، جغرافية السكان ، الجغرافية الاجتماعية ، الجغرافية الاقتصادية ، الجغرافية السياسية ، جغرافية السلاسل ، الجغرافية الفلكية والرياضية ، جغرافية التخلف أو العالم الثالث ، جغرافية الأحياء ، جغرافية التربة ، جغرافية البحار والمحيطات ، الجغرافية المائية ، بالإضافة إلى الجغرافية المناخية ، والجيومورفولوجيا ، أى علم التضاريس . بالإضافة إلى ذلك فإن علم ال " Toponymy " يمكن أن نستثمره فى الكتابة التاريخية ، فهو علم يهتم بالدراسات اللغوية أو التاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية ، فالمؤرخ لابد له أن يطلع على المؤلفات الجغرافية التى تبحث فى أسماء المدن والبلدان والقرى والمواقع ، لا سيما عند بحثه لتاريخ التربية لمدينة ما ، مثل البحث عن المدرسة الشهيرة التى أقيمت فى مدينة الإسكندرية فى عصر البطالمة ، والبحث فى اسمها وأسباب هذه التسمية . وتلك المؤلفات هى كثيرة لمختلف المدن والبلدان وفى مختلف اللغات (٢٦) ، ومن أشهرها ، " معجم البلدان " لياقوت الحموى ، و" نزهة المشتاق لاخترق الأفاق " للشريف الإبريسى و" أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " للمقدسى و" الخطط المقرزية " للمقريزى ، و" الخطط التوفيقية " لطفى مبارك ، وغيرها .

٤ - علم الاجتماع : فما كان علم الاجتماع يعنى حركة المجتمع وتطوره ، ولما كان المحرك لأى مجتمع هو الإنسان وما يحيط به من ظروف ، برزت أهمية علم الاجتماع فى الدراسات التاريخية ، فهو يساعد المؤرخ فى إثراء فكره التاريخى وتوسيع دائرة الأحداث ، وقد كان ابن خلدون المؤرخ هو مؤسس علم الاجتماع ، فهو عندما شرع يرصد الاتجاهات الرئيسية لحركة التاريخ وقواعدها ودلالاتها ، إذا بنا نجد أن ما توصل إليه يشكل البذور الأولى لعلم الاجتماع ، ومقدمة ابن خلدون يستطيع الباحث أن يتعامل معها باعتبارها مرجعا بارزا ، وعظيم القدر فى فلسفة التاريخ ، وبنفس القدر يستطيع الباحث فى علم الاجتماع أن يتناولها من زاويته (٢٧) .

والباحث إذا عاد إلى بعض المراجع الأساسية فى علم الاجتماع ، فسوف يجد أن موضوعاته ، تشكل خلفية ، بل وأساسا لا غنى عنه فى تفسير حركة التاريخ فى هذا المجتمع أو ذلك ، فمن موضوعاته : الثقافة القائمة ، وجملّة العادات والتقاليد ، والدراسة التشريحية للنظم الاجتماعية القائمة ، مثل النظام السياسى والنظام الاقتصادى والنظام الاجتماعى . الخ ، كما يجد تحليلا للمؤسسات الاجتماعية المختلفة مثل الأسرة بما تقوم عليه من قواعد وتنظيمات وما يسودها من عادات وتقاليد ، وأشكالها وعلاقات السلطة فيها ، ونفس الشيء بالنسبة لدور العبادة ومؤسسات الترفيه والرعاية الاجتماعية .

وقد شهد علم الاجتماع تطورات كثيرة ، فظهرت فروعها المختلفة ، منها علم الاجتماع السياسى الذى يربط بين الظواهر السياسية والظواهر الاجتماعية ، فيرتبط أشد الارتباط بالتاريخ ، حيث يدلى عالم الاجتماع السياسى فيه بالتفسيرات الاجتماعية للأحداث التاريخية ، ونفس الأمر بالنسبة لفرع علم الاجتماع المسمى بعلم الاجتماع الدينى ، وعلم الاجتماع الاقتصادى . ولعلنا يمكن أن نقول أن الباحث فى علم الاجتماع يتناول الأحداث التاريخية فى إطار تحرك الجماعات ونموها وتطورها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بما يتضمن هذا من عوامل مختلفة تظهر فى مجتمع من المجتمعات . ولعل مما يعزز أهمية هذا العلم فى التأريخ التربوى ، ظهور ما أصبح يعرف باسم علم الاجتماع التربوى الذى يدرس أوجه التفاعل بين الظواهر الاجتماعية والظواهر التربوية .

ومن أبرز فروع علم الاجتماع التي ظهرت حديثًا ما يسمى بعلم اجتماع المعرفة ، الذي كان له أبلغ الأثر في تطوير الدراسة التاريخية وتوجيهها أكثر إلى الزوايا والرؤى المجتمعية ، فهذا العلم ينصب اهتمامه على دراسة الشروط المجتمعية التي تظهر في كنفها الأفكار والنظريات والفلسفات المختلفة ، وهذا بدوره يصبح ضروريا للمؤرخ من حيث مده بمزيد من الأدوات ووسائل التحليل التي تعينه على مزيد من الفهم والتفسير عندما يتصدى لدراسة تطور الأفكار المختلفة . وتزداد أهمية ذلك في تاريخ التربية بصفة خاصة ، فنحن نعلم أن قسما كبيرا من هذا التاريخ يتجه إلى تطور الآراء والأفكار والفلسفات التربوية ، فنعلم بالتالي جملة الظروف التي تفسر ظهور هذا الفكر التربوي أو ذاك في مجتمع بعينه أو في حقبة معينة من الزمان . وقد تلاقى هذا مع تطور طبيعي في الدراسة التاريخية عندما تتببه كثيرون إلى أن عملية التأريخ لا ينبغي أن تقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية وحدها بل لابد من أن تمتد لتشمل مختلف الأبعاد المجتمعية ، كما لا ينبغي أن يقتصر التأريخ على الزعماء وقادة الدول ، بل لابد أن يدخل في دائرة اهتمامه مختلف الشرائح والطبقات الاجتماعية .

٥ - علم الوثائق : أو علم الدبلوماسية **Diplomatics** ، والوثائق في المعنى العام تدل على كل الأصول التي تحتوى على معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دون منها على الورق ، ولكنها في المعنى الذي اصطلح عليه الباحثون في الدراسات التاريخية ، وبالتالي فإن هذا المعنى في دراسة تاريخ التربية يجعلنا نعتبرها هي الكتابات الرسمية في التعليم - أو شبه الرسمية - مثل الأوامر والقرارات الوزارية والمعاهدات والاتفاقيات الثقافية والتعليمية التي تعقد مع دول أخرى ، والمراسلات التي تتبادل بين وزراء التربية والتعليم ، والكتابات التي تتناول الجوانب الاقتصادية للتعليم ، أو نظمه ، أو التقاليد السائدة في العملية التربوية وما يصيبها من قوة أو ضعف ، أو المشروعات التربوية أو المقترحات المتنوعة التي تصدر عن المسؤولين عن التعليم في الدولة أو التي تقدم إليهم ، أو المنكرات الشخصية أو اليومية ، كما نرى في منكرات د. محمد سيف الدين فهمي ( قصتي مع التربية ) ، وإن كان هذا النوع من الوثائق نادر بالنسبة للعاملين في حقل التعليم مع الأسف الشديد ( ٢٨ ) .

والدارس لهذا العلم يجمع بين عمل الآثارى فى حفرة وتنقيته وعمل المحقق الباحث فى فك الرموز والطلاسم التى يقدمها النص وبخاصة فى الوثائق التركبية العثمانية والفارسية أو العربية التى كتبت فى العصر العثمانى وما يقرب منه . وإلى جانب ذلك فإن علم الوثائق يساعد المؤرخ على التعرف تطور نوع الورق أو الزجاج أو المادة التى كتبت عليها الوثيقة ، والخاتم الذى مهرت به ونوعه ( ٢٩ ) ، ولا غرابة بناء على ذلك فى أن تعتبر الوثائق بمثابة المادة الخام التى يصنع منها التاريخ والتى يمكن أن تتطوى على أفكار جديدة وخلقة ، لأنها بقيت على حالتها التى صيغت بها ، ولأنها أقدم مصدر يمكن العثور عليه لإيضاح حدث معين ، ولأنها الشئ الوحيد الذى يقوم عليه التاريخ ( ٣٠ ) .

وعلى الرغم من تلك الأهمية الكبرى التى نوليها للوثائق إلا أنها يمكن أن تفقد الباحث إلى طريق يجافى ما وقع ، وذلك لأن الوثيقة ربما تكون قد خضعت لعملية فنية دقيقة لاستبدال لفظ مكان آخر أو عبارة مكان أخرى ، مما يبدل فى دلالتها واتجاهها . كذلك فإتينا نعود لنذكر القارى بما أسلفنا الحديث عنه من أن الذى يسجل ويدون ليس ملاكاً ، وليس كل الناس بالضرورة أمناء ، رغم ضرورة هذا ، فهناك الأهواء الشخصية والتعصبات المذهبية والدينية ، والخصومات ، وهل هناك ما هو أخطر وأدل على ما نقول مما قام به البعض من " وضع " أحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤيدوا بها شخصاً أو اتجاهاً أو سلوكاً على الرغم من تأكيد الرسول على أن من يكذب عليه عامداً متعمداً فسوف يتبوأ مكاتاً مخزياً فى نار جهنم؟ ومثل هذا وذلك يوجب الدقة فى النظر والنقد مما سوف نفصل فيه القول فى فصل تال .

ومن هنا ينبغى على دارس تاريخ التربية أن يتعلم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذى يعنيه ، ولا بد له من أن يعرف نوع المداد المستعمل وخصائصه ، مثل العلامة المائية والألياف التى تتضح عند تعرض الورق للضوء وتستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط والحبر والورق ، فبواسطة بعض العدسات المكبرة الخاصة وبواسطة المجهر يمكن تحديد ضغط القلم وميل الكتابة ، والصفات الخاصة بالكتابت وطريقة كتابته لبعض الحروف ، ولون الحبر ، وكذلك يمكن بواسطة المجهر والتحليل الكيميائى معرفة عمر الورق ، وأحياناً يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة

الحمراء والبنفسجية لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المغيرة عمدا .  
وكل هذه المعلومات تساعد الباحث على التثبت من صحة الوثائق التي تقع تحت يده أو  
بطلانها (٣١) .

٦ - الأدب : فقد بينت الدراسات العلمية الحديثة للأدب خطأ تلك النظرة التي كانت  
ترى أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنثور والمنظوم ، وأن يلم بهذا  
المنثور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب ، بشرحه وتفسيره ونقده لكى يكون  
أديبا ، وأن النظرة السليمة هي أن الأديب مرآة صافية وضاعة أمينة لما فى عصره إن  
كان أديبا منشئا وليس المختار من المنظوم والمنثور إلا صورا لألوان من حياة الأفراد  
والجماعات ، وفيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الرديء ، فيها الرضى  
وفيها البغيض ، ومن هنا فدارسو الأدب لا يقتنعون الآن بهذه الصورة يحفظونها  
ويستظهرونها ويلقون عليها أبصارهم متعجلين ، ولا يعمون النظر والتأمل ، وإنما  
يسعون إلى أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا - إلى أقصى  
حدود المعرفة - دقائق هذه الحياة النفسية التي اضطربت بها الأفراد والجماعات  
فأنشأت ما أنشأت من نظم ومن نثر (٣٢) .

وبهذا فإتانا لا نبالغ عندما نؤكد تلك العروة الوثقى بين التاريخ والأدب ، وبضرورة  
أن يطلع المؤرخ والباحث فى عصر ما من عصور تاريخ التربية على ألوان وصور  
وأشكال الأدب التي كانت شائعة ، ولا ينظر إليها على أنها محض خيال للكاتب ،  
وسبحات عقل فى دنيا أماتى وأحلام يقظة وتخيلات مفككة الأوصال . إن الأدب ، باتفاق  
غالب الآن ، هو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه ، وهو يفصح  
عن داخل البشر ، ويصور أحلامهم وأمانيهم ، فالأدب المصرى القديم على سبيل المثال  
، وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من آثاره ، يساعد الباحث فى التاريخ التربوى  
على تعرف نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة ، فالبيئة المصرية القديمة -  
بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها - قد أوحى إلى الكتاب المصريين القدامى بالتعبير عن

مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة ، فكتبوا عن معبوداتهم ، وعن تصوراتهم للعالم الآخر ، ودونوا قصصا خيالية وكتبوا فى الأدب التعليمى لتهديب الأبناء والتلاميذ (٣٣) .

ولدينا ، على سبيل المثال ، كتاب أدبى من عصر الدولة الوسطى يحتوى على نصائح والد لابنه ، وقد نقلته مدارس ( الكتبة ) ، وهو كتاب النصائح التى وجهها " خيتى بن دواوف " لابنه " بيبي " ، وقد ظلت هذه التعاليم أو النصائح تعرف بتعاليم " دواوف " إلى عهد قريب . والواقع أن صاحبها هو " خيتى بن دواوف " ، وهذه التعاليم تصف لنا بصورة قاتمة عنيفة البؤس والشقاء الدائم الذى كان يعانيه كل فرد لا يحترف الكتابة ( أى غير متعلم ) ، إذ كان الموظف المتعلم يعتبر مسيطرا على الناس ، وكان يغبطه على عمله كل أصحاب الحرف الأخرى . وإذا كانت الأوصاف التى جاءت فى هذه التعاليم صحيحة فى تفاصيلها ، فإنها تضع أمامنا صورة تدل على روح يغمره التحيز (٣٤) ، إنها تعاليم ألقاها مسافر اسمه خيتى بن دواوف لابنه بيبي فى سفينة حينما سافر مصعدا فى النهر إلى عاصمة الملك ليلحق ابنه بالمدرسة بين أولاد الحكام . وهذا العنوان وحده يكشف لنا عن حقائق خطيرة من الوجهة التعليمية والتاريخية ، فمنه نعلم أنه كان يوجد مدرسة جامعة يتعلم فيها أولاد عليّة القوم فى عاصمة الملك ، وأن العاصمة كانت وقتئذ فى الوجه القبلى ، لأنه كان على خيتى أن يقلع بالسفينة مصعدا فى النهر . ومن الجائز أنها كانت وقتئذ (أهناسية المدينة) أو ( طيبة ) . هذا إلى أن هذه المدرسة كان يعلم فيها أولاد حكام المقاطعات ومن فى طبقتهم .

وعلى أية حال ، فقد عالج القوم فى آدابهم نواح مختلفة من الآداب ، فكتبوا فى المواعظ وآداب السلوك ، وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفة ، وضمونها الأمثال والحكم الخالدة على مر الأيام ، وكر السنين ، وأنشأوا المقالات فى الإصلاح السياسى لعلاج ما تفشى - فى فترة ما - من مساوئ وما حل بالمجتمعات من نكبات ، وصنفوا الرسائل فى المناسبات والأغراض المختلفة فى التهنات والتواصى والتمنيات

والتراجى والتفاضل والمفاخرة وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها ، وحاكوا القصص القصيرة المختلفة ، حتى ليعتقد أن مصر إنما هي موطن القصة القصيرة ، وصاغوا الأناشيد وألقوا الأغاني والتمثيلات الدينية (٣٥) .

ومن المرجح كذلك أن الشعر الجاهلى إنما هو مصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ، ووقر فى أذهان الدارسين السابقين أن الشعر القديم من لوازم الحياة العربية ، وجد منذ أن وجدت ، إلى درجة أن لفظه ( عربى ) ترادف عندهم لفظه شاعر ، فالعربى شاعر بطبيعته وسليقته (٣٦) ، وقد أضحى الشعر مع الزمن ديوان هؤلاء العرب ، يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ، وإن شئت فقل : إنهم سجلوا أنفسهم فيه ، كما نستطيع أن نستدل به على جغرافية شبه الجزيرة العربية وما فيها من جبال ووديان وسهول ونبات وحيوان ، فضلا عن عقيدة القوم فى الجن والأصنام وفى الخرافات (٣٧) .

وهكذا أصبح الشعر بصفة خاصة علم العرب قبل الإسلام الذى ليس لهم علم أصح منه كما يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد كانت القبيلة من العرب ، إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة ، واجتمع التساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشرون الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذنب عن أحسابهم ، وتخليدا لملائرتهم ، وإشادة بذكورهم ، وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج ، كما قال ابن رشيق (٣٨) .

٧ - علم الاقتصاد : وقد وصل الأمر إلى أن ماركس وزميله اتجلز ذهابا - وسار وراءهم ما يصعب حصره من الباحثين المشايخين - إلى تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً محضاً ، مما سيأتى تفصيله فى الفصل القادم . ومع اعترافنا بأن هذا الاتجاه مبالغ فيه إلى حد كبير ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكره كلية ، فالظروف الاقتصادية كانت - وما زال - لها أبلغ الأثر فى تطور التربية فى مختلف المجتمعات ، وكان العامل الاقتصادى من أهم العوامل فى حياة الإنسان الحضارى ، على أنه تدرج من الالتقاط إلى الرعى ، إلى الزراعة ، إلى الصناعة . . . وهكذا . وأصبحنا نقيس حضارة الإنسان

بمدى استغلاله لما تقدمه له البيئة من إمكانيات ، ومدى تغلبه على العقبات التي  
تعرض طريقه في سبيل تذليل حياته وسد احتياجاته ( ٣٩ ) .

ومما لا شك فيه أن لكل مرحلة من مراحل تطور الإنسان ( التقاط ، رعى ، زراعة ،  
صناعة ) أساليبها التربوية ، وقيمتها المعيارية ، ومهارتها المفروض تعلمها ،  
وبطبيعة الحال ، معارفها الخاصة التي أمكن للإنسان أن يصل إليها بجوانبها المختلفة  
• ومما لا شك فيه كذلك أن " المدرسة " كمؤسسة متخصصة في التعليم لم يكن يتصور  
أن تظهر في المرحلتين الأوليين ، حيث كان الإنسان يمضي معظم وقته في البحث عن  
لقمة العيش منتقلا راحلا من مكان إلى آخر لا يكاد يعرف الاستقرار ، فضلا عن أنه لم  
يكن قد وصل بعد إلى فترة يفيض فيها إنتاجه عن حاجته ، بحيث يمكن أن يقتطع من  
وقته وقتا يمضيه في التعلم في مدرسة .

وقد برز العامل الاقتصادي في الحروب ، فاستخدم كل من نابليون وانجلترا هذا  
السلاح ضد الطرف الآخر ، وظهر هذا العامل أيضا في الحربين العالميتين الأولى  
والثانية • ولعل دخول الولايات المتحدة الأمريكية في صف الحلفاء ومساندتها  
الاقتصادية لهم كان كفيلا بترجيح كفتهم في كل من الحربين • وعلى الرغم من احتمال  
صحة دوافع أخرى ، فإن التفسير المرجح لحماس الولايات المتحدة الأمريكية غير  
الطبيعي لمحاربة العراق عندما غزا الكويت إنما يكمن في ما تتمتع به منطقة الخليج  
من إمكانيات نفطية غير محدودة ، وليس كما تدعى ، غيرة منها على حق دولة صغيرة  
في أن تتمتع باستقلالها وأمنها الوطني •

ولعبت العامل الاقتصادي أيضا دورا مهما في الاستعمار الأوربي الحديث ، فكان  
من أهداف الدول الاستعمارية الاستحواذ على المواد الخام الأولية والأسواق التي تسد  
حاجة الدول الصناعية ، ومن ثم كان الاستعمار الاقتصادي هو المظهر البارز للاستعمار  
الحديث ( ٤٠ ) • وفي عالمنا المعاصر ، نسمع كثيرا عما يسمى " بالعولمة " التي سوف  
يكون لها آثار بعيدة المدى على التربية والتعليم وعلى حركة الفكر والثقافة ، وجوهرها  
إنما يسعى إلى أن يصبح العالم سوقا كبرى مفتوحة ، متروكا للمنافسة الحرة ،

وبطبيعة الحال فسوف تفوز به نفس الدول الكبرى ذات الاقتصاد المهيمن والقوة العسكرية الجبارة ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان ظهور الدولة لأول مرة فى تاريخ مصر ، منشئة ومسيرة ومنظمة للتعليم الحديث مرتبطا أشد الارتباط بسياساتها الاقتصادية التى قامت على الاحتكار ، والأخذ بقدر من حركة التصنيع الحديث . وفى أوائل الاحتلال البريطانى لمصر كان المبرر الاقتصادى واضحا فى سياسة تقليص الجهود التى كانت قائمة من قبل ، فى عهد إسماعيل ، لنشر التعليم ، حيث كانت مشكلة الديون قد تفاقمت إلى درجة مفزعة حقا . وكان التزام الدولة بتشغيل الخريجين منذ الستينات حتى الثمانينات إما هو نتيجة كان لابد منها للفلسفة الاشتراكية التى ظلت تحكم حركة الاقتصاد المصرى ، وتغير الحال إلى العكس ، بازدياد أخذنا بالتوجهات الرأسمالية والتخلى عن النهج الاشتراكى ، وهذا أيضا يفسر التزايد المستمر فى دائرة القطاع الخاص فى التعليم ، وظهور جامعات خاصة ، وهو الأمر الذى كان يدخل فى باب " المحرمات " من قبل .

٨ - الفنون : والإمام بنواحي من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصر ما ، يساعد كذلك على فهم تاريخه ، وهذه الفنون - مثلها مثل الآثار الأدبية - مرآة للعصر ، فهذه الفنون فى مصر القديمة ، وخذ مثلا ، الأهرامات ، والمعابد ، ليست مجرد أحجار أخذت أشكالاً فنية بديعة ، وإنما هى رموز دالة على مستوى حضارى يضم عددا مذهلا من صور التقدم فى علوم مختلفة وآداب متعددة وأساليب حياة خاصة . ونفس الشيء بالنسبة لفنون آشور ، والهند ، والصين ، واليونان ، والرومان ، وفى فرنسا وانجلترا ، كلها تعكس صورا دقيقة لحضارات تلك البلدان ، وتبين كثيرا من خفايا أهلها ومن حياتهم الواقعة ، ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانيهم (٤١) .

ولعل من أبرز ما يمكن أن نسوقه تدليلا على ذلك الشكل المعمارى الذى اتخذته المدرسة فى العصور الإسلامية من حيث بنائها ، فالملاحظ فى غالبية المدارس الإسلامية أن جدار القبلة هو العامل الرئيسى فى تخطيطها ، وأن حدودها الداخلية تنتظم فى مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار ، ويتضح تبعا لذلك أن لكل من

هذه المدارس بيتًا للصلاة (٤٢) ، وأن هذا البيت يتصدر بناءها وأنه أكثر قاعاتها أهمية واتساعا ، ويلاحظ في بيوت صلاة معظم المدارس أنه قد روعى في تخطيطها أن تمتد في موازاة جدار القبلة أكثر من امتدادها في اتجاهه .

وخضعت المدرسة الإسلامية في كثير من الأحوال للتقاليد المحلية ، ففي فارس أثرت الإيوانات الساسانية على بناء المدارس العراقية والشامية والمصرية ، فأصبحت قاعاتها ألونة تفتح على الصحن ، وتعلوها قبوات ضخمة نصف اسطوانية منكسرة . وكانت بعض مدارس مصر تتألف من إيوانين متقابلين بينهما فناء ، ويرتبط الإيوانان معا عن طريق غرف متصلة ، ويعلو مدخل المدرسة عادة مئذنة ، مما يجعلنا نعتقد أن المدرسة المصرية تأثرت حتما بنظام المسجد (٤٣) .

وإن الإمام بشيء من فن العمارة القوطية في فرنسا - مثلا - في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لأمر ضروري لمن يريد أن يدرس ناحية من تاريخها في ذلك الزمان ، فلقد قدم هذان القرنان نماذج رائعة من العمارة القوطية ، كان لها أثرها في بناء المدارس والمعاهد والجامعات ، فمثلا تلك الكاتدرائيات العظيمة التي أتبثت في كثير من الأنحاء ، ونشأت كثرة لما سبقها من النمو التدريجي الروحي العقلي والفني ، منذ العصر القديم حتى زمانها . وقد تفانى الجميع ، أغنياء وفقراء ، ومن رجال دين وملوك وأمراء ورجال أعمال وأصحاب حرف وعمال ، في بذل أموالهم وجهودهم المتنوعة جيلا بعد جيل ، في صمت وصبر وجلد ودأب ، يحدوهم إيمان قوى ملحوظ (٤٤) .

والجمال على هذا المنوال ، بالنسبة لفنون المسرح والموسيقى وما يرتبط بها من غناء ورقص ، التي تعد كذلك من المزايا الصادقة التي تعكس أو تكشف عن كثير من الوقائع والحقائق الخاصة بعصور التاريخ ، والتي لا تكفى الكتابات التاريخية أو الوصفية أو الأدبية ، في التعبير عنها ، كما نرى في السمفونية الثالثة لبتهوفن " البطولة " التي تعد نقدا لطغيان الفرد لم يكن أحد يفهمه في عهد طغيان نابليون على أوروبا في القرن التاسع عشر (٤٥) . وفي مصر هناك عشرات الأغاني والأناشيد

الوطنية التي تعكس أحداثا هامة في ثورة يوليو ١٩٥٢ مثل : " الله أكبر " ، " والله زمان ياسلحي " . الخ .

٩ - علم الإنسان ( الأنثروبولوجيا ) : ويؤكد كثيرون بما لا يمكن دحضه ، أن علم الإنسان أشد العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين ، وخاصة أن هذا العلم يعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى ، وانتشار البشرية على سطح الأرض ، ونشوء الثقافات الإنسانيّة ، وتتبع الحلقات السلالية في سلسلة تاريخية متتالية من الظواهر المترابطة ، وكل ذلك يمد المؤرخ بأعظم فكرة مباشرة (٤٦) .

وقد اهتم بعض القدامى بالربط بين التاريخ والأنثروبولوجيا - بقصد أو بغير قصد - فقد حرص بوليوس قيصر أثناء كتابته لمذكراته أن يمدنا بمعلومات خاصة عن أجناس البشر التي رآها خلال تنقلاته في فترة الحروب التي خاضها . وقد تضمنت تلك المذكرات معلومات عن سلالات الغال والجرمان والبريطانيين ومعلومات عن ثقافتهم وأوضاعهم ، وهو بذلك يكون قد مزج بالفعل بين التاريخ والأنثروبولوجيا (٤٧) . ونفس الشيء فعله ابن خلدون عندما تفرد بذكر وتاريخ الجالية الأندلسية وأخبارها وأوضاعها أثناء نزوحها إلى المغرب في القرن السابع الهجري - الثالث الميلادي .

١٠ - علم النميات أو النومات Numismatics : أى علم النقود والمسكوكات ، وهو علم من العلوم التي تساعد القائم بعملية بحث تاريخي ، ذلك لأن النقود تمثل العصور المختلفة التي ضربت فيها ، وهي أيضا تمثل الملوك والسلطين والخلفاء والأمراء ومدى استغلال الإقليم أو تبعيته ، فقد تعتمد دولة على عملة البلد الذي يهيمن عليها ، كما أنها تعكس الحالة الاقتصادية للعصر الذي تنتمي إليه فقرا وغنى ، رخاء واستقرارا ، فقيمة العملة وما بها من ذهب أو فضة ، تمثل الجودة ، والعملة عندما تكون بها معادن خسيصة تمثل الرداءة ، خير دليل على اقتصاد العصر الذي تمثله (٤٨) .

هذا ومن النواحي المهمة لمن يرغب في دراسة تاريخ التربية وكتابته ، أن يعرف صورة عامة ، على الأقل عن التاريخ العام ، ومن ثم فعليه أن يقرأ بعض مختارات من بعض كتابات المؤرخين القدامى منهم والمحدثين ، هذا فضلا عن أنه من الأمور

الأساسية لباحث تاريخ التربية ، ألا يلتزم بحدود بلده ، بل لابد له من كثرة السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، بقدر الإمكان ، فذلك يتيح له بصرا أبعدا وعمقا أكثر في تناول التاريخي .

وهكذا يكون المؤرخ التربوي ، مثل بقية زملائه المهمومين بالتأريخ في حقوله المختلفة ، يجد نفسه غير معتقل في تخصص ضيق لا يرى من العالم إلاه ، وإنما هو مطالب ، بحكم الضرورة البحثية العلمية ، أن يتسع أفق بحثه ، وتتعدد ألوان ثقافته ، فيتسع بصره وينفذ .

## الهوامش والمراجع

- ١ - أحمد كمال عاشور : بعض القضايا الجدلية فى المنهج المقارن ، مجلة دراسات تربوية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ج ٥ ، م ٢ ، ١٩٨٦ ، ص ١٣٧
- ٢ - المرجع السابق ، ص ١٣٨
- ٣ - قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠
- ٤ - المرجع السابق ، ص ٥١
- ٥ - حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٥
- ٦ - لانجلوا وسينوبوس وآخرون : النقد التاريخى ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، النهضة العربية ، ١٩٧٠ ، ص ٥٢
- ٧ - عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميى : منهج البحث التاريخى ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٤٧
- ٨ - حسان حلاق : مناهج الفكر والبحث التاريخى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨ ، ص ٦٧
- ٩ - المرجع السابق ، ص ٦٨
- ١٠ - لانجلوا وسينوبوس : النقد التاريخى ، ص ٥٢
- ١١ - المرجع السابق ، ص ٥٩
- ١٢ - المرجع السابق ، ص ٦٠
- ١٣ - المرجع السابق ، ص ٦١
- ١٤ - شوقى الجمل : علم التاريخ ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٩٣
- ١٥ - حسان حلاق ، مرجع سابق ، ص ٧٨
- ١٦ - حسن عثمان ، مرجع سابق ، ص ٢٦
- ١٧ - حسان حلاق ، ص ٧٩
- ١٨ - حسن عثمان ، ص ٢٧
- ١٩ - حسان حلاق ، ص ٧٦

- ٢٠ - فتحية التبراوى ومحمد نصر مهنا : مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٤٤
- ٢١ - عبد العزيز صالح : دليل كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٥
- ٢٢ - عبد المنعم الجميى ، مرجع سابق ، ص ٥٥
- ٢٣ - شوقى الجمل ، علم التاريخ ، ص ٨٦
- ٢٤ - المرجع السابق ، ٨٧
- ٢٥ - فيشر ، اول ك تاريخ أوروبا فى العصر الوسيط ، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٦٨
- ٢٦ - حسان حلاق ، ص ٩٤
- ٢٧ - مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، ٥٠
- ٢٨ - حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، ص ٣٠
- ٢٩ - قاسم السمراى : مقدمة فى الوثائق الإسلامية ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨٣ ، ص ٧-٨

٣٠ - عبد المنعم الجميى ، ص ٥٤

Vincent. J. M. : Aids to Historical Research . New York - ٣١

P.53

- ٣٢ - مقدمة ( فجر الإسلام ) لأحمد أمين ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥
- ٣٣ - محمد بيومى مهران : التاريخ والتأريخ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص ١٩٤
- ٣٤ - سعيد إسماعيل على : التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٠٤
- ٣٥ - محمد بيومى مهران : التاريخ والتأريخ ، ص ١٩٦
- ٣٦ - سعيد إسماعيل على : التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٣٢
- ٣٧ - محمد بيومى مهران ، ص ١٩٨
- ٣٨ - على العتوم : قضايا الشعر الجاهلى ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص ١٤
- ٣٩ - شوقى الجمل : علم التاريخ ، ص ٨٨

- ٤٠ - المرجع السابق ، ص ٩٠
- ٤١ - حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، ص ٤٠
- ٤٢ - أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ ،  
المدخل ، ص ١١٨
- ٤٣ - سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ،  
١٩٨٦ ، ص ٣٢٠
- ٤٤ - حسن عثمان ، ص ٤٢
- ٤٥ - المرجع السابق ، ص ٤٤
- ٤٦ - عبد المنعم الجميعة ، ص ٥٧
- ٤٧ - حسان حلق ، ص ٩٩
- ٤٨ - مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، ص ٥٧